"أجازه" فقيه حنبلي قبل قرنين ورفضته جامعة باريس ومنعته كنائس الغرب.. كيف أهدى العثمانيون التطعيم الطبي إلى العالم؟

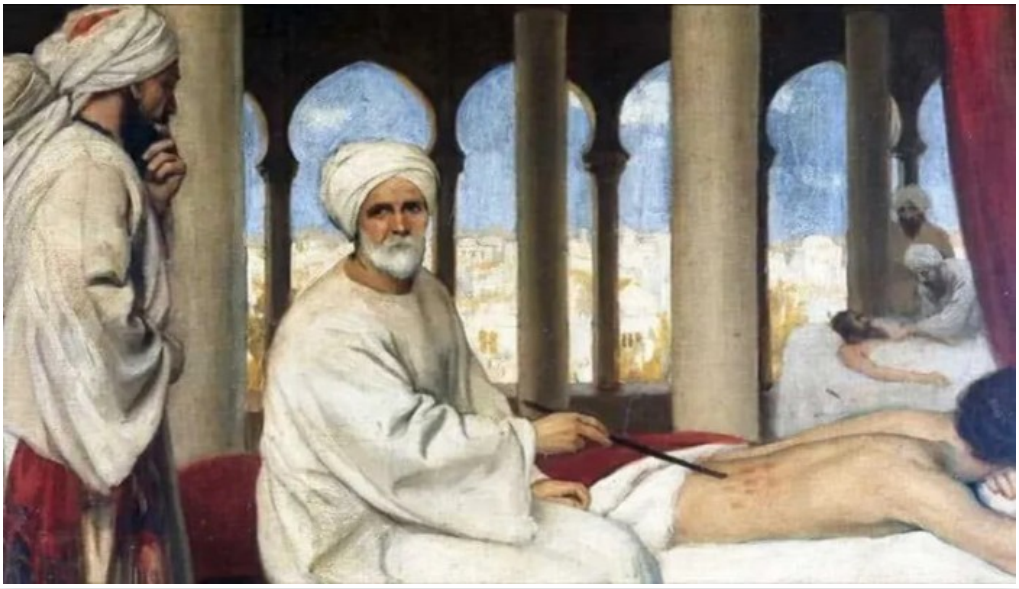

الثلاثاء 17 فبراير 2026 08:00 م

قبل أكثر من مئتيْ عام؛ اكتفى الفقيه الحنبلي الشيخ حمد ابن مُعمّر النجدي (ت 1225هـ/1810م) بالإفتاء بكراهة نوع من التطعيم التقليدي ضد الجُدَري كان يفعله الناس في منطقة نجد وسط السعودية اليوم، في وقت كانت تتحرك فيه مظاهرات عارمة في شوارع بريطانيا ضد ممارسة التطعيم بنمطه الحديث بعد أن قاومه رجال الدين المسيحيون.

وبقدر ما تستوقف المرءَ تلك المفارقةُ اللافتة؛ فإن من المدهش جدا أن نجد أن تراث تلقيح الأبدان بالداء -لتقويتها أمام مخاطر الأمراض- عريق في تاريخ البشرية، ومن العجب أيضا أن تلك الخبرة سُجّلت في الأدب العربي وخاصة الشعر الذي هو "ديوان العرب" المعرفي والتجاربي، مما ينم عن معرفة سابقة لهذا النمط من التداوي.

وإذا كان فقيه مسلم يسكن في عزلة عن العالم قد استوعب -كما سنرى لاحقا- العلاقةَ الغريبة بين الداء كخطر وفاة والداء كفرصة نجاة؛ فإنه لن يكون مستغرَبا أن نرى الدولة العثمانية أيامها قد ذهبت بالتطعيم -بنمطه التقليدي المتوارث الذي طوّرته واعتمدته رسميا ونوعه الحديث حين اكتُشِف- إلى آماد أوسع وآفاق أرحب، فقد كانت أرضُها هي المعبرَ الأول الذي انتقل منه التطعيم إلى أوروبا ثم منها إلى بقية العالم بصيغة أكثر حداثة وفعالية.

ويبدو أن الأتراك ما زالوا -حتى اللحظة- قادرين على الإسهام الرائد في مجال التطعيمات الطبية؛ إذ يتصدر المشهدَ العالمي اليوم اثنان من حفدة العثمانيين يحملان الجنسية الألمانية، وهما البروفيسور أوغور شاهين وزوجته الدكتورة أوزليم توريتشي اللذان طوّرا أهمّ لقاح -حتى الآن- مضادّ لفيروس كورونا (كوفيد 19).

إن هذا المقال يقدم محاولة لتقفي رحلة التطعيم الطبي في مسارها المتعلق بالمسلمين، وخاصة في حقبة الدولة العثمانية وإسهامها في نشره بين رعاياها ونقله إلى أوروبا باعتراف الغربيين أنفسهم، كما يرصد المواقف الإسلامية والمسيحية الغربية من هذا الأسلوب الطبي الوقائي، وكيف تبنّت رفضه برلماناتٌ ومؤسساتٌ علمية يُفترض فيها الانحياز الصارم إلى المنطق العلمي.

نظرة تاريخية

لعلّ فكرة التطعيم من أكثر الأفكار ثورية في التاريخ، وبقدر ما يُعدُّ تعبيرُ "التفكير خارج الصندوق" مبتذلًا فإنّه يبدو بالغ الصّدق إذا وصفنا به التطعيم، إذ العثور على الحلّ الشافي والظفرُ به من داخل المرض نفسه سيبقى -مهما تعوّده الناسُ- فكرةً باهرةً وجديرةً بإعجابٍ لا يخبو.

ومن العجيب في شأن التطعيم قِدمُ اكتشافه في مقابل حداثة انتشاره نسبيًّا؛ إذ يذكر مؤرّخ الحضارات الأميركي ويل ديورانت (ت 1402هـ/1981م) -في فصل "العِلم الهنديّ" من كتابه 'قصة الحضارة'- أن "الهند [عرفت] التطعيم منذ سنة 550م، مع أن أوروبا لم تعرفه إلا في القرن الثامن عشر"!

وقد استشهد ديورانت بما قال إنه "نصٌّ يُعزَى إلى ذانوانتاري (توفي في القرن 2م) وهو طبيب من أقدم أطباء الهنود، وهذا هو: خذ السائل من البُثور التي تراها على ضرع البقرة...، خذه على سِنَان المِشْرَط ثم طَعِّم به الأذْرِعَة بين الأكتاف والمَرافق حتى يظهر الدم؛ عندئذ يختلط السائل بالدم فتنشأ عن اختلاطه حُمَّى الجُدَرِيِّ".

ويعود المؤرخ الأميركي بعد ذلك ليؤكد فضل الهند في هذا المجال، فيقول: "وعلمتنا الهند -بواسطة العرب- أعدادها البسيطة، وكسورها العشرية السحرية، كما علَّمت أوروبا دقائق التنويم المغناطيسي، وفن التطعيم". كما يفيدنا بأن الصينيين "استخدموا اللقاح في معالجة الجُدَرِيِّ وإن كانوا لم يستخدموا التطعيم للوقاية منه، ولعلهم قد أخذوا هذا عن الهند".

ورغم اتصال العرب بالهنود ونقلهم علومهم إلى أوروبا وسائر الدنيا، كما أسلفنا نقلًا عن ديورانت؛ فإننا لم نجدهم عُنوا باللقاح الطبي أو التطعيم فيما نُقل إلينا من طبّهم في كتب التراث العربي الإسلامي، ولعلّ ذلك كان أحد أسباب تأخّر انتشاره في أرجاء الدنيا.

ملمح أدبي

على أنّ الخزانة الأدبية العربية لم تخلُ من دليل على معرفتهم معنًى قريناً لفكرة استخلاص الدواء من الداء عموما، واكتساب المناعة بالضربات المتتابعة؛ فهذا الشاعر العباسي أبو نواس (ت 198هـ/814م) يقول:

دع عنك لومي فإنّ اللوم إغراءُ ** وداوني بالتي كانت هي الدّاءُ!

ولئن كان دواء الخمر بالخمر من قبيل الاستجارة من الرمضاء بالنار؛ فإنّ أبا نواس قد أبدع في فكرته على الأقل، وإن أبعد وزاغ في تطبيقها!

أما أبو الطيب المتنبّي (ت 354هـ/965م) فكان له قصبُ السبق في الإشارة عموما إلى اكتساب الجسد قّوة المناعة بفعل الإصابات السابقة؛ إذ قال:

رماني الدّهرُ بالأرْزاءِ حتى ** فــؤادي في غـشاءٍ من نِبَال
فصـرتُ إذا أصابتني سهامٌ ** تكسّرتِ النِّصالُ على النصال!

فالمتنبي هنا يُشبّه المصائب التي تتابعت على جسده بسهامٍ أصابت قلبه، ثم إنّ السهام لما تكاثرت عليه صارت مثل غشاء أو درعٍ يحمي قلبه من السهام الجديدة، فتتكسر نصالُها الجديدة على النصال القديمة!

بيد أن المتنبّي لم يكتف بالتصريح بالمناعة الناشئة عن الإصابة المادية حتى كاد يتنبّأ بالمبدأ الذي قام عليه التطعيم الطبي الحديث، وذلك حين قال:

لعلّ عَتبَك محمودٌ عواقبُه *** فرُبّما صحّت الأجسادُ بالعِلَل!!

وقد علق الشاعر العراقي الشهير معروف الرصافي (ت 1365هـ/1945م) -في مقال بعنوان "عالم الذباب" كتبه سنة 1363هـ/1943م ونشرته لاحقا مجلة 'الرسالة' المصرية في عددها رقم 971- على بيت المتنبي، ملاحِظا ذلك التنبؤ الغريب الكامن فيه؛ فرأى في ذلك ما يشبه المعجزة لأن المتنبي "قد قال هذا [البيت] في الأيام التي كان التطعيم فيها بجراثيم الأمراض غير معلوم، وفنّ البكترويولوجيا (= علم الجراثيم) غير موجود"!

ولا نعلمُ إن كانت هذه الفلسفة العربيّة بشأن التطعيم قد غادرت المرّبع الأدبيّ لتأخذ مجراها العمليّ في المجال الطبّي؛ فما عثرنا عليه متعلقا بهذا الجانب -في المصادر العربية الطبية التاريخية- شحيحٌ جدًّا، لكنه معبر عن وجود تطبيقات عملية -من نوع ما- لفكرة استخلاص الدواء من الداء لمكافحته.

خبرة مرصودة

ومن نماذج ذلك ما أشار إليه كما تطرق الفيلسوف الطبيب ابن سينا (ت 428هـ/1038م) -في كتابه 'القانون في الطب'- لإمكانية اكتساب المناعة بأخذ ما يسبّبُ المرض والأذى؛ فقد قال ضاربا المثل على قدرة الجسم على اكتساب مناعة من السموم إذا تعوّد استعمالها بالتدريج: "وقد كانت بعض العجائز تناولت في أول الأمر من البيش (= مادة ساقِ ة) شيئا قليلا جدا، ثم لم تزل تلازمه حتى ألِفته الطبيعة (= طبيعة جسمها) وتجرأت عليه، وما ضرها شيئا"!

وقريب من ذلك ما أورده الطبيب ابن أبي أصَيْبِعة (ت 668هـ/1269م) -في 'عيون الأنباء في طبقات الأطباء'- من قصص واقعية -تواترت منذ زمان اليونان- تعدّ "دليلا على أن لحوم الأفاعي تنفع من نهْش الأفاعي والحيات"؛ ومن هنا جاءت فكرة "الترياق" الذي تعالج به السموم بمكوّنات تستخلص أحيانا من مصادر تلك السموم نفسها. وهو ما أكده أيضا الجاحظ (ت 255هـ/869م) -في كتابه 'الحيوان'- فقال إنه "بالحية يُتداوَى من سُمِّ الحية، ولِلَدْغ الأفاعي يُؤخَذ الترياقُ الذي لا يوجد إلا بمُتُون (= ظهور) الأفاعي"!

وربما تكون "ثقافة الترياق" هذه أحدثت أثرا عمليا في الممارسة الطبية تجاوز مجال معالجة السموم والوقاية من ضررها إلى جوانب أخرى من أنواع العلاج الوقائي للإصابة والمرض. وقد يشهد لصحة هذا الاستنتاج ما ذكرته مصادر حديثة من أن العرب كانوا يعرفون -من قديم الزمان- التطعيم الذي نمارسه اليوم، ومن ذلك ما ذكرته المستشرقة الألمانية الشهيرة زيغريد هونكه (ت 1420هـ/1999م) في كتابها 'شمس العرب تسطع على الغرب'.

فقد قالت هونكه إن "محاولة إدخال مبدأ التطعيم ضد الجُدَريّ في أوروبا -في أواخر القرن الثامن عشر- حققها العرب في العصور الإسلامية الأولى، مُتّبِعِين فيها نفس التفكير والأسلوب المُتَّبَعَيْن في عصرنا اليوم بالتلقيح بواسطة جراثيم ضعيفة وخلق المناعة بطرق اصطناعية. وكان الصينيون يضعون ضمادة مبلولة بقيح الجُدَريّ في أنف ولدهم؛ وأما العرب فقد اتبعوا طريقة أخرى في التلقيح، إذ عمدوا إلى جرح

راحة اليد ما بين المعصم والإبهام ووضع قليل من بثور غير ملتهبة فوق الجرح يحفونه بها جيدا".

وأكّـد هـذا القـولَ معاصـرٌ آخر هـو البـاحث في تاريـخ العلـوم الـدكتور أسامـة الصـيادي في كتـابه ‘أهـم الاختراعـات والاكتشافـات في تـاريخ الإنسانيـة‘؛ فقال: "وكان الأطباء العرب يتبعون الطب الوقائي في الأمراض المعدية؛ فقد كانوا... يصـنعون نوعا من التطعيم ضد الجدري، إذ يأخـذون بعض البثـور مـن مريض نـاقهٍ ويطعّـم به الشخص السـليم بـأن توضـع (= البثـور) على راحـة اليـد وتُفْرَك جيـدا، أو يحـدثون خـدشا في مكانها؛ وهي فكرة التطعيم نفسها التي نُسبت فيما بعد إلى أوروبا".

موقفٌ محمودٌ

لم أجـد لما ذكره هـذان الباحثان شاهدًا من الكتب التراثية؛ لكن لدينا فتوى صدرت قبل أكثر من مئتيْ سـنة عن أحد مشايخ نجد وسط الجزيرة العربيـة، وهو الشـيخ حمـد بن ناصـر بن مُعمّر النجـدي الحنبلي وتوحي هـذه الفتوى بأن التلقيـح -بالصورة التي ذكرتها المستشـرقة هونكه والدكتور الصيادي- كان ممارسةً قديمة دارجة شعبيا بين عوامّ الجزيرة العربية، وكان يُسمّى عندهم "التَّوْتِين".

ومن الواضـح أن هـذا التلقيـح الشـعبي -الـذي كان معروفا بين أهل نجد- لا صـلة له بالتطعيم الرسـميّ الذي كانت تُعنى به الدولة العثمانية وتنشره في بعض مناطقها، ناهيك عن أن يكون ممارَسا على الطريقة الإنجليزية التي عُرفت بالتزامن مع وقت صدور الفتوى أو قبله بقليل

ففي فتـواه المـذكورة -والـتي تضـمَّنها كتـاب بعنـوان ‘عـدة رسـائل في مسـائل فقهيـة‘ أشـرف على طبعـه الشـيخ محمّـد رشـيد رضـا (ت 1354هـ/1935م)- سُئِل الشيخ ابـن مُعمّر الحنبلي عـن الحكـم الشـرعي في "التَّوْتِيـن (= التطعيـم) الـذي يفعلـه العَوَامُّ، أي يأخـذون قَيْحـاً من المَجْدُور ويَشُقّون جلد الصحيح ويجعلونه في ذلك [الموضع] المشقوق، يزعمون أنه إن جُدِر (= أصيب بالجُدَريّ) يخفف عنه".

وقـد أجاب الشـيخُ سائلَه بأن هذا العلاج الوقائي نوعٌ "من التداوي عن الداء قبل نزوله، فـهؤلاء يزعمون أن التَّوْتِين من الأسـباب المخفِّفة للجُدَري والـذي يظهر لنـا فيه الكراهـة لأن فـاعله يسـتعجل به البلاء قبـل نزوله، إلا أنه في الغـالب إذا وُتِّنَ ظهر فيه الجُدَري فربما قتله، فيكون الفاعل لـذلك قد أعان على قتل نفسه، كما قد ذكره العلماء فيمن أكل فوق الشبع فمات بسـبب ذلك؛ فهذا وجه الكراهة" الشـرعية في ممارسة "التَّوْتِين" أي التطعيم الشعبي

والمُلاحـظ أن الشـيخ ابن معمّر إنّمـا كره "التَّوْتِين" من جهـة الأخطـاء التي كانت تشوبُ إجراء هـذا النوع التقليـدي من التطعيم، والمضاعفات التي جرت بسـببه لمن أجرِي لهم وقـد عقّب الشـيخ رشـيد رضا على هـذه فتوى الشـيخ ابن معمّر عندما نشـرها بعد انتشار التطعيم الحديث، مـدركا التطابق بينه وبين "التَّوْتِين"؛ فقال: "يظهر أن هـذا التَّوْتِين -الـذي يُسَمَّى الآن التلقيـح أو التطعيم- لم يكن في عصـر هذا المفتي أو في بلاده قد نجح كنجاحه المعروف الآن، حتى في أمراض أخرى غير الجدري، ولذلك أثبتَ أنه مَظَنَّة الضرر فيكون مكروها".

وقـد ثمَّن الشـيخُ رضـا للفقيه الحنبلي اكتفـاءَه فقـط بإصـدار حكم الكراهـة التنزيهيـة -التي هي أقرب فقهيا إلى الإباحـة- على التطعيم غير الاحترافي، في الوقت الـذي "حرَّمه -في أول ظهوره- كثيرٌ من أهل البلاد والمِلَل (= الأديان) المختلفـة حتى الإنكليز، وقـد ثبت من عهد بعيد أنـه يقي من هـذا الـداء الفتّـاك المشـوِّه (= الجُـدَريّ)، وأن تـأثير التلقيـح الـواقي خفيـف جـدا يتحمله الأطفـال بسـهولة؛ فـالقول بوجـوبه (= التطعيم) غير بعيد" من الناحية الفقهية

تأصيلات لغوية

أمـا اسم "التَّوْتِين" فلعلّه لغـةً جـاء مما ذكرته المعـاجم: "وَتَنَ [الشيءُ] وُتُونـاً أي دام ولم ينقطع"، كما في معجم ‘الصحاح‘ لأبي نصـر الجوهري (ت 393هـ/1004م)؛ فكأن هذا الاسم مأخوذ من دوام أثر جراحة التطعيم وبقاء نُدْبته في جسد الشخص المطعَّم

وأهـل نجـد يسـمون تطعيمهـم "الوتنـة"، وهي مفردة من معانيهـا الفصيحة: "المخالَفـة"، كمـا في قـول ابن منظـور (ت 711هـ/1311م) في ‘لسـان العرب‘: "الوتنـة: المخالَفـة"؛ ولعـل معنى هـذا الاسـم مشـتق من كون موضع التطعيم يبقى مختلفـا عمـا حوله من البشـرة لأثر جراحة التطعيم

والشاهـدُ هنـا أنّ وجود "التَّوْتِين" -باسـمه المحليّ لـدى عوامّ الناس بالجزيرة العربيـة وبطريقته البدائيـة- يـدلُّ على عمقٍ له في أصول الطبّ الشـعبيّ العربيّ وأما اسمُ "التطعيم" المسـتخدم اليوم فلعلّه مأخوذ من تطعيم الشجر؛ فإذا كانوا يأخذون من بثور المريض فيقطعون جلد الصحيح ويجعلونه فيه، فما أشبه ذلك بالتطعيم الذي يكون بين النباتات المتقاربة في الخصائص العلمية للفصيلة والعائلة النباتية

ومن الشواهد الشعرية على هذا النوع من التطعيم النباتي قولُ الشاعر المصري جمال الدين ابن نُباتة (ت 768هـ/1366م):

تشبهت بالغُـدران والنـقشُ روضُها ** فأصبحت ملهى النـاظر المتوسّمِ
وأنبتّ بـ"التطـعيم" أشـجارَ فضة ** ومِن أحسنِ الأشجار كلُّ "المُطَعَّم"

وقـد ذكر ويـل ديورانت -في ‘قصـة الحضارة‘- خبرة المسـلمين بتطعيم الشـجر من قـديم الزمان؛ فقال: "عَرف علماء الأحياء المسـلمون طريقة إنتاج فواكه جديدة بطريق ‘التطعيم‘، وجمعوا بين شجرة الورد وشجرة اللوز، وأوجدوا بذلك ‘التطعيم‘ أزهارا نادرة جميلة المنظر"!

وذكرُ تطعيم النبـات متواترٌ في كتب الـتراث، ومن ذلـك مـا أورده الطبيب والفقيه الشـافعي علاء الـدين ابن النفيس (ت 687هـ/1288م) -في ‘الشامـل في الصناعة الطبيـة‘- حين تكلم على أنـواع ثمرة الإجّـاص، فقـال إن منهـا نوعـا "يُسمَّى بـدمشق القراسـيا البعلبكي، وإنمـا يتكـوّن بدمشق بالتطعيم".

كما يخبرنا المؤرخ المصري ابن تَغْرِي بَرْدي (ت 874هـ/1469م) -في ‘النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة‘- عن بعض وقائع دخول التطعيم النباتي في فنّ البَسْتَنَة المصري، فيقول إن السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون (ت 741هـ/1340م) استحدث في مصر "بستانا وأحضر إليه سائر أصناف الزراعات، واستدعى خَوَلة (= عمّال) الشام والمطعِّمِين، فباشروه حتى صار من أعظم البساتين، وعَرَف أهل جزيرة الفيل [بمصر] من ذلك اليوم التطعيم للشجر".

سبق مشهود

وإذا انتقلنا من التنقيب عن الأصول التراثية للتطعيم إلى بيان أوليات ممارسته في العصر الحديث، ودور المسلمين في تعريف الآخرين به؛ فسنجد أن الأتراك العثمانيين كانوا أصحاب سبق مشهود في ميدان التطعيم، بل كانوا بوابته إلى أوروبا التي انتشر عبرها تدريجيا إلى العالم كلّه

والظاهرُ أن التطعيم لم يكن جديدًا على الأتراك بدليل معرفته في جوارهم الجغرافي عند الشعبيْن الشركسي والأرمني؛ إذ يقول ديورانت: "كان قدماء الصينيين قد مارسوا نقل الفيروس الذي أضعِفت قوتُه من إنسان مصاب بالجُدَري إلى آخر لتحصينه ضد الجدري، ولهذا الغرض نفسه كانت النسوة الشركسيات يَخِزْنَ الجسم بِإِبَرٍ مُسَّت بسوائل الجدري"!

وفي معنى قريب من ذلك؛ يقول ويليام باينَم في كتابه ‘تاريخ الطب‘: "كان التلقيح إجراء مُتَّبَعاً في الشرق منذ قديم الأزل؛ فقد مارسه الصينيون باستخدام مسحوق من مادة المرض الطُّفْحِي واستنشاقه مثل مسحوق التبغ وفي تركيا كانت [هذه] المادة تُدخل عبر حكّة في الجلد".

ورغم ما ذكرناه من عدم عثورنا على ما يفيد تضمن كتب الطب التراثية لما يشير إلى استخدام المسلمين للتطعيم الطبي؛ فإنه لا يُستبعد أن يكونوا تلقوا وعيا به من الأمم السالفة، خاصة إذا لاحظنا ذلك المستوى العظيم الذي كانت عليه الحياة الطبية في الحضارة الإسلامية، والذي يلخصه وِلْ ديورانت بقوله: "كان المسلمون أول من أنشأ مخازن الأدوية والصيدليات، وهم الذين أنشؤوا أول مدرسة للصيدلة، وكتبوا الرسائل العظيمة في علم الأقرباذين (= علم تركيب الأدوية)".

ويضيف أنه "لا يكاد الطب الحديث يزيد شيئا على ما وصفوه من العلاج للجدري والحصبة، وقد استخدموا التخدير بالاستنشاق في بعض العمليات الجراحية؛ واستعانوا بالحشيش وغيره من المخدرات على النوم العميق؛ ولدينا أسماء أربعة وثلاثين بيمارستانا (= مستشفى) كانت قائمة في البلاد الإسلامية في ذلك الوقت، ويلوح أنها أنشئت فيها خمسة أخرى في القرن العاشر الميلادي (= الرابع الهجري)".

أما عن خبرة المسلمين في مجال التطعيم الطبي في العصر الحديث؛ فقد نشر العلّامة أنستاس الكرملي (ت 1366هـ/1947م) -في العدد 67 من مجلته ‘لغة العرب‘ الصادر بتاريخ 1 مارس/آذار 1929- مقالة بعنوان: “صفحة من تاريخ التطعيم الواقي من الجدري في العراق وإيران”، وكان مما جاء فيها: "يُروى أن قسما من الأرمن كانوا يُطْعِمون أولادَهم زبيباً مَحْشُوًّا بقليل من صديد بُثور الجُدَري للوقاية منه وقد ذكر السائح الإيطالي سستيني (ت بعد 1195هـ/1781م) -في كتاب رحلته إلى بغداد سنة 1781...- أن أهل الزوراء (= بغداد) قاطبة كانوا يُلقِّحون أنفسهم بأنفسهم"! ثم تساءل الكرملي: "ماذا يريد [سستيني] بهذا الكلام؟ هل يا ترى [يقصد] التلقيح الشائع في الآستانة (= إسطنبول) أم غيره؟ فالله أعلم".

ولعله من هنا ذهب المؤرخ التركي يلماز أوزتونا (ت 1434هـ/2012م) -في كتابه ‘تاريخ الدولة العثمانية‘- إلى أن التطعيم "طبّقه الأتراك لعصور طويلة"! وأضاف محددا تاريخ بداية توثيق ممارسة العثمانيين لتطعيم الأطفال: "لدينا معلومات عن تطعيم الأطفال في إسطنبول ضد الجدري عام 1695 (= 1108هـ)".

انتقال متدرج

ومما يؤيد كلامَ أوزتونا حديثُ ديورانت عن أنه "في [عام] 1714 وصفت رسالةٌ من الدكتور إيمانويل تيموني (= Emanuel Timoni المتوفى بعد 1128هـ/1716م) -قُرِئتْ على جمعية لندن الملكية- الحصولَ على الجدري بالحزّ أو التطعيم كما مورِس منذ زمن طويل في الآستانة"!

وفي معرض حديثه عن العادات الصحية التركية؛ صرح ديورانت -في ‘قصة الحضارة‘- بفضل الأتراك في إيصال التطعيم إلى أوروبا ضمن ما نقلته عنهم من العادات الصحية والأساليب الطبية، وذلك في صورة ممارسةٍ عمليةٍ للتطعيم وليس فقط معلومات شارحة له كما في رسالة الدكتور تيموني السابق ذكرها

يقول ديورانت: "كان الأتراك فخورين بحمّاماتهم العامة، يرون أنفسهم على العموم شعباً أنظف من النصارى (= الأوروبيين)...؛ وكان الكثيرون من أفراد الطبقتين العليا والوسطى يختلفون إلى الحمام التركي مرتين في الأسبوع، وأكثر منهم يختلفون مرة في الأسبوع؛ لا عجب إذن إن لم نسمع الكثير عن روماتيزم المفاصل في تركيا [كما أن] الأتراك علموا أوروبا التطعيم ضد الجُدَري، ولم يخامرهم شك في أن مدنيتهم تفوق مدنية الأقطار المسيحية".

وقد انتقل التطعيم من العاصمة العثمانية الآستانة إلى أوروبا في الثلث الأول من القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، وفق ما ذكرته ليدي ماري وورتلي مونتياغو (Mary Wortley Montagu توفيت 1176هـ/1762م) التي كانت زوجة إدوارد وورتلي مونتياغو (ت 1175هـ/1761م) السفير البريطاني لدى الإمبراطورية العثمانية

كتبت ليدي مونتياغو -في رسالة بعثت بها من إسطنبول إلى أحد معارفها في لندن بتاريخ 1 أبريل/نيسان 1717 الموافق 1129هـ ونقل ديورانت نصها- تحكي مشاهداتها بشأن التطعيم لدى العثمانيين وفعاليته الصحية؛ فقالت: "إن الجدري ذلك المرض الشديد الفتك والانتشار بيننا -نحن البريطانيين- قد جعله اختراع التطعيم سليم العاقبة تماما، وفي كل عام تُجرَى العملية لألوف الناس [في الدولة

العثمانية]..، وليس هناك حالة واحدة لشخص مات منها وقد تُصدِّق أنني مطمئنة جدا لسلامة التجربة إذا علمتَ أنني أنوي تطبيقها على ولدي الصغير الحبيب". ثم يعقّب ديورانت قائلا: "وقد طُعِّم الصبي البالغ من العمر ست سنوات في مارس/آذار 1718 (= 1130هـ) بيد الدكتور تشارلز ميتلاند، وهو طبيب إنجليزي كان يومها في تركيا"!

مقاومة صلبة

من العجب أن أوروبا -وهي في أوج عصر نهضتها العلمية- قاومت التطعيم على الطريقة التركية مقاومة شديدة في بداية تعرّفها عليه، وكانت في ذلك مدفوعةً بأسباب غريبة جدًّا دارت بين السياسي والأيديولوجيّ، وقد لخص ذلك المؤرخ التركي أوزتونا بقوله: "قاومت أوروبا مدة طويلة اللقاح الذي طبقه الأتراك لعصور طويلة...، إن حدوث الاكتشاف من قبل الأتراك أوقع أوروبا في تردد طويل الأمد جدا، وأعلن الرهبان أن الذي يسمح بإجراء تطعيم له يعتبر خارجا على الدين"!

وهكذا طالت مدة الرفض الأوروبي للاستفادة من طريقة التطعيم العثمانية حتى "استغرق الجمهور ورجال الطب القرن الثامن عشر بطوله تقريباً لتقبل التطعيم الوقائي لوناً مشروعا من ألوان الطب العلاجي"؛ وفقا لديورانت الذي استعرض بشكل خاص تاريخ معارضة البريطانيين لهذا التطعيم، وعزا ذلك إلى "موقف المجتمع البريطاني المتحفظ ضد كل ما هو جديد".

وقد نقل ديورانت من أخبار ليدي ماري مونتاغو -زوجة السفير البريطاني في إسطنبول- أنها واجهت حربًا ضروسًا، بسبب دعايتها في بلادها للتطعيم العثماني بعد مشاهدتها له ولنتائجه الفعالة في إسطنبول؛ "ففي [سنة] 1721 انتشر وباء جدري في لندن وفتك بأهلها لا سيما الأطفال، وكانت ليدي ماري قد عادت من تركيا فكلفت الدكتور ميتلاند (= الطبيب المرافق لزوجها السفير في تركيا) الذي عاد هو أيضا إلى وطنه، بأن يطعِّم ابنتها البالغة من العمر أربعة أعوام ودعا [ميتلاند] ثلاثةً من أبرز الأطباء ليروا أن الفتاة لم تزعجها النتائج إزعاجا يُذكر؛ فأعجبوا بما رأوا وسمح أحدهم بتطعيم ابنه".

ووفقا لما أورده ديورانت؛ فإنه بعد تلك التجارب المشجعة "نشرت ليدي ماري الفكرة في البلاط" الملكي في أوساط الأسرة الحاكمة ببريطانيا ففي سنة 1722؛ أمرت الملكة كارولين أنسباخ (ت 1150هـ/1737م) -زوجة ملك بريطانيا حينها جورج الثاني (ت 1139هـ/1727م)- رسميا "بإجراء العملية (= التطعيم) على الأطفال الأيتام في أبرشية سانت جيمس فتكللت بالنجاح التام، وفي أبريل/نيسان (من السنة ذاتها) أمرت بإجرائها على اثنتين من بناتها"، كانت إحداهما ابنتها الأثيرة الأميرة كارولين (ت 1170هـ/1757م) الملقبة "أميرة بريطانيا العظمى".

أما أكثرُ ما يثير الاستغراب فهو الطريقة التي اعتمدها البلاط البريطاني للتأكد من فاعلية التطعيم، عبر اتخاذه المساجين والأيتام حقلا لاختبار نجاح التجربة؛ ففي سنة 1154هـ/1741م "وافقت الأميرة كارولين [التي سبق تطعيمها وهي صغيرة] على تجربة التطعيم على ستة مجرمين حُكم عليهم بالإعدام، فارتضوا (= وافقوا) على وعد بأن يُفرج عنهم إن ظلوا أحياء؛ وعانى أحدهم من إصابة خفيفة بالمرض، أما الباقون فلم يَبدُ عليهم أي أذى، وأفرِج عن الستة جميعاً".

ثم يذكر ديورانت أن تلك الخطوات الرسمية الناجحة أعطت القضية دفعا مجتمعيا كبيرا، قبل حصول انتكاسة في الممارسة غذّت حركة معارضتها من جديد؛ ففي البداية "انتشر قبول التطعيم في الأوساط الأرستقراطية البريطانية، ولكن موت شخصين مطعَّمَيْن في بيتهما عطّل الحركة وقوّى المعارضة لها".

عوائق متعددة

كان رجال الدين المسيحيون في طليعة من ناهضوا تجارب التطعيم تلك؛ إذ نظر بعضُ القساوسة إلى التطعيم باعتباره دليلا على اعتراض من يُجْريه على القَدَر أو مناهضته للإرادة الإلهية القاضية بإيقاع المرض! فقد ذكر ديورانت أن قسيسًا إنجليزيًّا "يُدعى إدوارد ماسي [بقي] حتى عام 1772 يعظ ضد "عادة التطعيم الخطرة المدنية"، ويدافع بقوة عن رأي اللاهوت القديم الذي يرى أن الأمراض ترسلها العناية الإلهية عقاباً على الخطيئة"!!

وفي الوقت نفسه؛ يبدو أنه كن من أسباب رفض التطعيم انتشار ممارسته على أيدي النساء، فقد "شكا أحد النقاد من أن "تجربة لم تمارسها غير قلة من النساء الجاهلات... تسود فجأة -وبعد خبرة ضئيلة- على أمّة من أكثر أمم الأرض أدبا وتهذيبا، حتى وجدت طريقها إلى القصر الملكي"". كما "شجب معظمُ الأطباء الإنجليز التطعيمَ لما فيه من خطر" وفق رؤيتهم

لم تقف ليدي مونتاغو مكتوفة اليدين أمام هذه المعارضة المحمومة لجهودها لإنقاذ مجتمعها من مرض فتّاك، فاستعملت ما أمكنها من الحِيل البديعة في معركتها المصيرية؛ "أحست ليدي ماري بهذه الطعنة، فنشرت دون توقيع [منشورا كان عنوانُه]: "بيانا واضحا عن التطعيم بالجدري بقلم تاجر تركي""؛ حسبما نقله ديورانت ولعلّه من المثير للاستغراب أن يكون بيان منحول لتاجرٍ تُركيّ مخترَع أكثر قبولًا عند عامة البريطانيين أيامها من القرارات والشهادات الرسمية، والتجارب الطبية المشاهدة والناجحة!!

لم تكن المعارضة الأوروبية للتطعيم إنجليزية فقط، بل كان لفرنسا "عصر الأنوار" نصيبها الوافر من الريبة القوية في هذا الوافد العثماني إلى بلاد الغال والوقوف أمام زحفه ومن العجب أن تتصدر مشهدَ معارضة التطعيم النخبتان العلمية والسياسية ممثَّلتيْن في جامعة باريس والبرلمان الفرنسيّ؛ فبعد أن "ضرب الوصي على العرش فيليب أورليان (ت 1135هـ/1723م) -بشجاعته المعهودة- المَثَلَ لغيره بتطعيم ولديْه، عارضت كلية الطب بجامعة باريس التطعيم حتى 1763"؛ وفقا لرواية ديورانت

وقد كان الأديب الفرنسي فولتير (ت 1192هـ/1778م) استثناءً بارزا في ذلك المشهد المناهض؛ إذ "امتدح حملة ليدي ماري في ‘رسائله حول الإنجليز‘، ولاحظ انتشار التطعيم بين الشراكسة"!!

تنصّل مرفوض

يؤكد ديورانت أن فولتير هو مؤلف كتاب "تاريخ برلمان باريس' رغم تنصله العلني من نسبته إليه، ويقرر أن فولتير كتبه ونشره باسم مستعار تجنّبًا للمشاكل، خاصة أنه قدّم فيه البرلمانَ الفرنسي باعتباره "مؤسسةً رجعية قاومت -في كل مناسبة- التدابيرَ التقدمية، كإنشاء الأكاديمية الفرنسية، والتطعيم ضد الجدري، والإدارة الحرة للقضاء".

يفرد ديورانت صفحات لبيان جهود الطبيب الجرّاح الإنجليزي إدوارد جِينّر (ت 1238هـ/1823م) التي كانت محطة مهمّة في تاريخ تطور التطعيم ضدّ الجُدَري، بل وضدّ الأمراض الجرثومية عمومًا وما تسببه من أوبئة وطواعين مهلكة؛ فيقول إن جِينّر "لاحظ أن اللبّانات (= حالبات الأبقار) اللاتي أصِبْنَ بجدري البقر -وهو مرض خفيف نسبيا- نادراً ما يُصَبن بالجدري الذي يفتك بالمرضى في غالب الأحيان".

ويضيف شارحا المنعطف الحاسم في مجهود جِينّر؛ فيقول إنه في "حوالي [سنة] 1778 خطرت له فكرة نقل المناعة ضد الجدري بالتطعيم بلقاح مصنوع من بقرة مصابة بالجدري...، وفي مايو/أيار 1796 أجرى جِينّر عملية التطعيم بتلقيح [صبي]... بصديد جدري البقر... ولم يصب الصبي بالجدري، فاستنتج جِينّر أن لقاح البقر يعطي حصانة ضد الجدري"!

وقد دفع ذلك النجاحُ جِينّر إلى أن ينشر في 1798 "كتابه الخطير "تحقيق في سبب ونتائج لقاح الفاريولا" (والفاريولا كان الاسم الطبي للجدري) الذي روى فيه قصة ثلاث وعشرين حالة كانت كلها ناجحة".

وقد لاحظ ديورانت اختلاف تعاطي البرلمان البريطاني مع مسألة التطعيم عن نظيره الفرنسي؛ فبعد ذلك النجاح الذي أحرزته تلك التطعيمات "بلغ الاقتناعُ بالتجارب التي أعقبت هذا مبلغاً حَمَلَ البرلمان [البريطاني] في 1802g1807 على منح جِينّر ثلاثين ألف جنيه ليوسّع عمله ويحسّن طريقته، وبعدها تناقصت سريعاً الإصابات بالجدري، ذلك المرض الذي ظل قروناً سوطاً من أسواط العذاب الكبرى التي أشرعت على حياة البشر".

اقتباس مرجَّح

لقد سبق أن نقلنا عن ديورانت وغيره نسبتهم فضل نشر التطعيم إلى الأتراك، وأشرنا لجهود ليدي مونتاغو وغيرها ممن نقلوا الطريقة التركية إلى بلدانهم الأوروبية، ونود هنا أن ننوه بترجيح البعض اقتباس الطبيب جِينّر طريقته من نظيرتها التركيّة.

فقد جاء في مقالة الكرملي -الآنفة الذكر- أن ليدي مونتاغو "لما عادت [من إسطنبول] إلى بلادها بذلت جهدها في تعريف ذلك التلقيح ونشره بين جميع طبقات الشعب الإنكليزي، فنجحت في مسعاها. وعندي أنه ربما اتصل خبر هذا التلقيح -بعد حين- إلى جِينّر فنبه في عقله فكرة كشفه" الطبي الحاسم.

وكما واجهت جهود ليدي مونتاغو مقاومة شرسة من طبقات المجتمع فقد لقيت تجاربُ الجرّاح جِينّر المصيرَ نفسه؛ ففي مقالةٍ منشورة على موقع "تاريخ التطعيمات" -التابع لجمعية الأطباء بفيلادلفيا الأميركية- ورد ذكر جانب من المعارضة الشعبية التي لقيها تطعيم جِينّر في وقته، إذ "اعتقد بعض المعترضين -بما في ذلك رجال الدين المحليون- أن اللقاح كان «غير مسيحي» لأنه جاء من حيوان"!

ووثقت المقالةُ ذاتها تنظيم مظاهرة ضخمة آنذاك في بريطانيا شارك فيها نحوُ مئة ألف محتجّ اعترضوا على التطعيم حين "فَرض مرسومُ التطعيم في 1853 التلقيحَ الإلزامي للأطفال...، [وكان] مصحوبا بعقوبات لرفض اللقاح"؛ وخرج المحتجون يحملون "الرايات، وتابوت طفل، ودمية لجِينّر"!

وقد جرت المظاهرة في مارس/آذار 1885/1302هـ بمدينة ليستر البريطانية التي كانت "معقلًا خاصًا للنشاط المضاد للتطعيم، ومكانًا للعديد من المسيرات المضادة للتطعيم"، وشهدت المسيرة تضحية استثنائية "لأمّ شارّة ورجلين عزموا جميعًا على تسليم أنفسهم للشرطة والخضوع للسجن، بدلًا من إخضاع أطفالهم للتطعيم".

تجارب بغدادية

لم يكن إجراء التطعيم في الدولة العثمانية مقتصرًا على الآستانة/إسطنبول، بل امتدّ أحيانا إلى بعض الولايات الأخرى بعناية رسميّة؛ إذ يفيدنا الكرملي -في مقالته السابقة- بأن التطعيم على طريقة جِينّر مورس في العراق قبل عام 1809، بواسطة شابّ أرمنيّ كاثوليكيّ من أهل الآستانة يُدعى أوانيس بن بدروس مراديان (ت 1247هـ/1832م) أو "مراديان الإسلامبولي"، الذي كان يحسن ست لغات ويتابع "سير الأمور السياسية شرقا وغربا، ويتتبع تقدم العلوم في بلاد الإفرنج وظهور المكشوفات العلمية فيها والاختراعات الفنية".

ووفقا لما ذكره الكرملي؛ فإن أوانيس هذا "على يده دخل بغدادَ -لأول مرة- التطعيمُ الواقي والعام من الجدري طبقا لطريقة جِينّر، لكن الله يعلم بما كابده من الأتعاب وعاناه من المشاق في سبيل الوصول إلى إقناع أهل بغداد بقوله لهم والإقدام عليه، وذلك بسبب الأوهام السائدة وقتئذ على العقول، ولا سيما لأن التطعيم كان يُظَنُّ أنه مخالِفٌ للقَدَر".

وإذا كان هذا التعليل الشعبي لمعارضة التطعيم يذكرنا بنظائره التي سبق ذكر تعلل الأوروبيين بها، فإن موقف المؤسسة الدينية الإسلامية بالعراق بدا مختلفا جدا عن نظيرتها الغربية؛ فقد استطاع أوانيس بمعونة من مفتي بغداد العام آنذاك أن يذلل الصعاب التي اعترضته، وينشر التطعيم في العراق ويمارسه على أوسع نطاق.

يقول الكرملي بعد ذكره فشل مهمة حملة التطعيم الأولى: "بيد أن أوانيس عاد سنة 1809 فأفرغ قصارى جهده في تذليل العقبات وتشتيت الأوهام التي حالت قَبْلًا دون غايته، ففاز أخيرا بأمنيته وتكلل مسعاه بنجاح باهر، حتى إن مفتي بغداد الكبير وهو أحمد أفندي (ت

1213هـ/1828م) الحصيف الرأي رضي بأن يتطعم أولاده وحفدته الستة". وموقف مفتي بغداد هذا قبل قرنين إنما يذكرنا -في مقصده العام- بما نراه اليوم من نشر لصور قادة دول العالم وهم يتلقوْن لقاح فيروس كورونا (كوفيد 19) لطمأنة مواطنيهم بشأن سلامته!

ويبدو أن الناس وجدت فيما فعله المفتي من تطعيم لأفراد عائلته قدوة عملية بددت مخاوفَها الدينيةَ والصحيةَ، حتى إن ذلك تعدى المسلمين إلى أتباع الديانات الأخرى ببغداد؛ فالكرملي يؤكد أن موقف "مفتي بغداد شجّع الناس -على اختلاف مِلَلِهم- فدفعهم إلى الإقدام على التطعيم بلا خوف ولا تردد، حتى إن أوانيس تمكّن من أن يطعِّم مع امرأته تريزية (= تريزيا أنطوان أتري المتوفاة بعد 1247هـ/1832م وكانت ابنة طبيب فرنسي) أكثر من خمسة آلاف وأربعمئة ولد في مدة تسع سنوات، دون أن يحدث حادث يقلل ثقة الناس بالتطعيم، وكان تطعيم الثلثين من العدد المذكور مجانا".

مثابرة مثمرة

لم يُغْنِ ذلك النجاح الكبير أوانيس عن السعي لتوسيع نطاقه مستعينا هذه المرة بدعم مجرّبي تطعيمه من عوامّ العراقيين، الذين حرروا له إقرارا يشهد له بالنجاح ولتطعيمه بالنجاعة، فكتبوا له ورقةً سمّوْه فيها "الخواجة أوانيس مراديان الإسلامبولي"، وشهدوا له بأنه "من تاريخ أربع سنين إلى الآن كلّ من استعمله ما ظهر به الجدري الطبيعي أبدا". ثم ختموا بالدعاء له وبتوثيق تاريخ الشهادة: "ربنا يجازيه ولأولاده لأجل هذا الخير الكلي الذي أدخله وعلَّمه في بلدنا حُرِّر في بغداد في 30 أكتوبر سنة 1814 (= 1229هـ)".

وفي المقالة ذاتها نجد الإشارة إلى تنفيذ حملات تطعيم مجانية برعاية الدولة العثمانية؛ ففي "سنة 1847 (= 1263هـ) أنفذ السلطان عبد المجيد (ت 1277هـ/1861م) أمرًا بإرسال راغب بك (ت بعد 1263هـ/1847م) حاجبه الثالث إلى بغداد وغيرها من الولايات العثمانية، ليتفقد أحوالها وينظر في شؤونها، فدخل راغب بك الزوراء (= بغداد) في 21 مارس/آذار من السنة المذكورة، ومعه طبيب أرمني اسمه باروناك فروخ خان (ت بعد 1263هـ/1847م) كان قد رافقه من الآستانة (= إسطنبول) ليداوي المرضى، ويطعّم الأولاد مجانًا في جميع المدن والقرى التي على طريقهما، وما وطئت قدماه مدينة السلام (= بغداد) حتى أخذ يقوم بوظيفته المعهودة إليه -بهمَّة لا تعرف المَلَل- في جهات عديدة من العراق، ثم قفل راجعا إلى الآستانة، ومن ذلك اليوم لم ينقطع التطعيم من العراق بل زاد شأنا وانتشارا".

لكن يبدو أن التطعيم العثماني -بنوعيْه القديم التركي والحديث الذي على طريقة جِينّر- لم يكن معروفا في ولاية الجزائر رغم أنها كانت حينها منطقة حيوية للعثمانيين، وغياب تطعيمهم عن الجزائر هو ما جعل سلطاتها المحلية تلجأ لتطعيم الأوروبيين ففي دراسة بعنوان ‘تاريخ الطب في الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي 1830-1962‘ للباحثة د مجاهد يمينة؛ ورد الآتي نقلا عن كتاب ‘الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال‘ للطبيب الفرنسي شونبيرغ .أف:

"يذكر شونبيرغ أن [الحاكم العثماني بالجزائر] الداي حسين (ت 1254هـ/1838م) أرسل أولاده وأسرته إلى طبيب إنجليزي يدعى ‘بوهن‘ لتطعيمهم، فأثارت هذه المسألة اهتماما عاما لأنها كانت في الواقع مضادة للمفهوم السائد في المجتمع الجزائري الذي يدعو إلى الإيمان بالقضاء والقَدَر، ونجحت عملية التطعيم نجاحا كاملا ونالت أيضا رضا الداي فأرسل بعدئذ للسيد ‘بوهن‘ مبلغا من المال".

لم يكن موقف مفتي بغداد -المتقدم الذكر- ثم من بعده عوامّ العراقيين منبتًّا عن الثقافة الدينية الإسلامية التي لم تر بأسًا في توقّي المرض قبل حصوله، وفي الحرص على العلاج وإدراك وجوده، والواجب الإنسانيّ في البحث عنه والعثور عليه؛ فقد جاء في الحديث عن أسامة بن شريك -رضي الله عنه- عن النبيّ قال: "يا عباد الله تداوَوْا، فإن الله عز وجل لم يَضع داءً إلا وَضع له شفاءً"؛ رواه البخاري (ت 256هـ/870م) في كتابه ‘الأدب المفرد‘، وجاء أيضا في سنن أبي داود (ت 275هـ/888م) وجامع الترمذي (ت 279هـ/892م).